باب الانتقاد على المنار

جاءنا في اوائل العام اسئلة من (لنجه — في خليج فارس) أجبنا عنها في الجزء الثالث . وكانت تلك الأسئلة مبنية على انتقاد بعض الناس على المنار الاستقلال بتفسير القرآن واتيانه بمعان فيه لم تنقل عن المفسرين . وقد سئل عن ذلك عالم لنجه الشيخ عبد الرحمن يوسف الملقب بسلطان العلماء فأجاب عنها . وقد كتب الينا ولده بعد ذلك ان المنتقد أنكر من جواب المنار أمورا

(احدها) قول المنار (ص ١٨٦) « الذي يؤخذ من مجموع الروايات في تفسير السلف لهذه الآية ان اللام في العدل ليست للجنس » الخ . قال المنتقد : ان الآية ليس فيها لفظ العدل فيبحث عن لامه — وان العبارة تدل على ان صاحب المنار مضطر الى التقليد « وتوقيف الذهن على ما ذكره المفسرون » (كذا)

(ثانيها) قول المنار (ص ١٨٧) ان العدل الذي يدخل في استطاعة الانسان واجب حتى في معاملة الاعداء وقال « يا لله العجب اذا فرق زيد صدقته المندوبة فأعطى عمرا مئة وخالدا ألفا هل يعد مخالفا للواجب . . . وانما العدل الواجب في القضية »

(ثالثها) قول المنار « والامر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يفيدان المأمور والمنهي علما يبعث ارادته الى العمل به » قال المنتقد « انه استنباط معنى من النص يخصصه وهو وان كان مختلفا فيه عند الاصوليين الا أن قولنا ان العالم بما يفعل لا يؤمر ولا ينهى قول منكر ينهى عنه »

(رابعها) قول المنار « ولهذا كان واجبا » اي لانه يفيد ما ذكر . قال المنتقد « هو استنتاج عجيب ولا شك انه من عثرة القلم سيما حصره علة الوجوب »

ثم طلب الكاتب دفع خرافات هذا المنتقد ووصفه بعدة اوصاف لا نذكر منها الا انزهها وهو انه متهور يؤذي العلماء والدين . وان دفع خرافاته يفيد أهل تلك البلاد . فأقول

يظهر ان هذا المنتقد من أهل المراء والجدل لا من طلاب الحق فيما يقوله أو ينتقده، ومن كان كذلك ينبغي عدم الالتفات الى انتقاده الا اذا كان يؤذي الناس. فاذا كان ممن وجها إلى مخطئة المنار في بعض المسائل فالخطب سهل فالمنار غير مؤيد بالعصمة وليدلنا على كتاب من تأليف البشر، ليس فيه خطأ ولا غلط، ولم ينتقد أحد عليه شيئا

اما عبارة المنار في لام (العدل) فالمراد بها ظاهر لغير المماري الذي يلتمس حرفا ينكره، ولا ينظر في جملة القول والمراد منه، ذلك بأنه علل في السؤال كون العدل غير واجب « باخبار الله تعالى بأن العدل غير مستطاع » ـ هذه عبارته، فاذا كان الفعل لا يدل على المصدر عنده ولا يؤول به وإن اقترن بأن المصدرية فلماذا صرح هو نفسه بأن الله أخبر بأن العدل غير مستطاع ـ ولفظ العدل لم يرد في الآية ـ واذا كانت عبارة المنار جوابا عن قوله هذا فلم لم يجوز ان تكون كلمة العدل فيها قد ذكرت حكاية للفظه هو، وان يكون تقدير الكلام ان العدل الذي قلت إن الله تعالى قد أخبر بأنه غير مستطاع ليس هو جنس العدل وانما هو عدل خاص الخ ماهنالك، اي فلا يتم زعمك انه غير واجب. على ان لفظ العدل ورد في بعض روايات تفسير الآية فيجوز ان تحمل عبارة المنار على حكاية ذلك

وأما زعمه ان نقل المنار روايات المفسرين يدل على اضطرار صاحبه الى التقليد فهو بديهي البطلان فما كل من نقل مضطر الى تسليم ماقاله وما كل من سلم ماقاله وقبله يكون مقلدا لمن نقله عنه، لجواز ان يقبله لقوة دليله، وقد اشترط بعض الاصوليين في الاجتهاد العلم بفروع الفقه منهم الاستاذ ابو اسحق الاسفرايني والاستاذ ابو منصور وابو حامد الغزالي وخصمه هذا يمثل أهل زمنه ـ وزمننا أولى ـ فاذا جاز أن يتوقف اجتهاد الانسان على وقوفه على اجتهاد غيره أفلا يجوز أن يتوقف على ماروي عن السلف في فهم القرآن وهو أقرب الى تحرير اللغة وتفسير الاصطلاحات الشرعية منه الى الاجتهاد والاستنباط ؟

وأما إنكاره ما أوجب الله من العدل الممكن في المعاملة وحصره العدل الواجب

في الاقضية، فهو أغرب ضروب تهافته وأدلة جهله . وأقرب الحجج الدامغة له ما يجادل ويماري في موضوعه ، وهو العدل بين النساء، فهل يصل به التهور الذي وصف به الى ان يزعم ان العدل لا يجب بين الزوجتين الا في القضاء بين يدي الحاكم ؟ وقال الله تعالى (٥ : ٨ يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون» وليس في الآية قرينة تخصص هذا العدل بالحكم وصرح المفسرون بعموم العدل فيها مع الاعداء وشموله للاحكام والاعمال . وقال تعالى (٦ : ١٥٢ واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) كما قال (٤ : ٥٧ ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) فهذا هو العدل في الاحكام، وذاك هو العدل بالاقوال، ومن الامر بالعدل العام الشامل لكل قول وفعل وحكم قوله تعالى ١٦ : ان الله يأمر بالعدل والاحسان) وقال صلى الله عليه وسلم « ان الله كتب الاحسان في كل شيء » أي بنص هذه الآية وأمثالها والعدل أولى بأن يكتب ، لانه أهم ، والحاجة اليه أعم ، وعدمه سبب الخراب والدمار .

واما شبهة المنتقد التي أوردها فدليل على ان المرء قد أفسد عليه فهم ضروريات اللغة والعرف فان صدقة التطوع وإعطاء بعض الفقراء منها اكثر من بعض ليست مما يدخل في باب العدل والظلم اذ ليس لاحد الفقيرين حق على هذا المتصدق المتطوع ولا ماله شركة بينهما فيقسمه بالعدل والمساواة ، وانما هو محسن والله تعالى يقول « ما على المحسنين من سبيل »

وأما قوله ان المنار قد استنبط معنى من النص يخصصه الخ فهو قول من لم يفهم عبارة المنار وما أظن أن يستطيع أن يفهمها وهو يجهل ضروريات اللغة والشرع ، فهذه عبارة تهدم أقوى شبهات فلاسفة هذا العصر ، التي يؤيدون بها مذهب الجبر، وهي قولهم بالأفعال المتعكسة المركبة . ومن اضاعة الوقت وخسارة الصحف ان نطيل الكلام مع مثل هذا المماري في مثل هذه المسألة

* *

(التبرك بزيارة الصالحين)

كتب الينا بعض القراء من دمشق يقول بعد الثناء :

قرأت في منارکم الاغر في الجزء الرابع من المجلد الرابع عشر جوابكم على سؤال الاستمداد من الانبياء قلتم : ومن طلب من المخلوق مددا معنويا فهو على نوعين نوع يعد شركا كطلب الزيادة في العمر فان هذا من مما لا يطلب الا من الله تعالى فمن طلبه من غيره فقد أشركه معه . وهذا ظاهر لا يحتاج الى بيان . وأما الذي غمض علي فهو قولكم : « ونوع لا يعد شركا لانه داخل في دائرة الأسباب وهو ما يطلبه المتصدقون من أهل العلم بزيارة الصالحين وقبرهم او ذكر مناقبهم وسيرتهم وتصور احوالهم من الزيادة في حب الخير والصلاح والتقوى ويعبرون عن هذه الزيادة الذي يجدونها في نفوسهم بالبركة والمدد ، ولكنهم لا يدعونهم من دون الله ولا يفعلون ما لم يفعله السلف » واني ارى هذا هو عين الشرك بدليل قولكم وهو ما يطلبه المتصوفون من أهل العلم بزيارة الصالحين وذكر مناقبهم وسيرتهم وتصور احوالهم ، وهذا الطلب لا يكون الا من الاموات ، ومعلوم ان الاستمداد من الاموات شرك لا مرية فيه . وأما قولكم : ولا يفعلون مالا يفعله السلف ، ففيه انه لم ينقل عن أحد من السلف الصالح زيارة الاموات مع ذكر المناقب بل الامر بالعكس كانوا يناضلون هذه البدع اشد المناضلة . واني اعتقد ان من جملة الاسباب التي اوقعت الاسلام في الكسل والخمول هو سموم بعض افكار المتصوفة الذين ظنوا ان الدين بالتقشف واعتزال الناس ثم سرت في افئدتنا حتى اصبحنا نظن ان كل ما قاله المتصوفون حق . هذا وارجو من اخلاصكم اظهار هذه الحقيقة حتى يتبين الصبح لذي عينين وان الله مع المتقين »

(المنار) يظهر انكم فهمتم من كلمة « يطلبه المتصوفون » الدعاء والطلب القولي وأننا اجعنا دعاءهم كما يدعى الله عز وجل ، مع علمكم بأننا نصرف معظم العمر في مقاومة امثال هذه البدع وغفلتم عن تصريحنا بكونهم « لا يدعونهم » وعن قولنا « بزيارة الصالحين وقبرهم او ذكر مناقبهم وسيرتهم وتصور أحوالهم » وهو متعلق بيطلبه المراد

منه يقصده ويبغيه . والمعنى ان الصوفي العالم بدينه الملتزم لسيرة السلف يبغي ويقصد من زيارة الصالحين والقرب منهم في حال حياتهم ، وبذكر مناقبهم وسيرتهم وتصور حوالهم بعد مماتهم ، ان ينمو في نفسه حب الخير والصلاح والتقوى التي هي صفات الصالحين . وذلك أن رؤية الصالحين والقرب منهم ومشاهدة سمتهم وهديهم يؤثر في النفس ويبعث فيها القدوة ، وكذلك ذكر مناقبهم وسيرتهم وتصور أحوالهم بعد موتهم ، ويفسد ذلك معاشرة الفساق والاشرار وقراءة أخبارهم ، وتصور احوالهم في فسقهم واسرافهم ، يشوق النفس الى المعاصي ويقودها الى الاقتداء بهم . ولذلك صرحنا بأن هؤلاء الذين اجزنا فعلهم ، وبينا قصدهم ، يلتزمون سيرة السلف الاستمساك بالسنة واتقاء البدعة ، ولا يدعون مع الله احداً وما كل المتصوفة هكذا

* *

الذكر بالالفاظ المفردة

كتب الينا صديقنا الشيخ احمد محمد الالفي ينتقد ما كتبناه في الجزء الثاني ردا عليه في عدم مشروعية الذكر بالالفاظ المفردة . فنترك مما كتبه مناقشاته في أقوال زيد وعمرو ممن ليس قولهم حجة في الدين باجماع المسلمين ومنهم الفقهاء والصوفية الذي نقل عنهم بل عزى اليهم مشروعية ما ذكر ، وقال انه لا يعقل أن يبنوا عملهم على غير أصل ثابت — فانهم هم لا يدعون ان كلامهم حجة ، ونترك دعواه «ان المذاهب الاربعة اجمعت على مشروعية الذكر بالاسم المفرد مطلقا» . فان المذاهب لا يعزى اليها الاجماع وانما يعزى الى جميع المجتهدين فان اراد ان الائمة الاربعة هم الذين اجمعوا فليأتنا بنصوصهم وان كان اجماعهم وحدهم ليس حجة عند الاصوليين — ولنترك البحث في نقله عن ابي حنيفة انه اوصى أبا يوسف بما نصه « وأكثر ذكر الله بين فيها الناس ليعلموا ذلك منك » فان هذا لو كان نصا في محل النزاع لكان له غنى عنه بمثله في القرآن الكريم ، فهنالك الحجة البالغة ولكنه ليس نصا والا لما كان ثم محل للخلاف ، واذا كان يسعى مثل هذه العبارة نصا في المسألة فلا يعتد بشيء من فهمه ولا نقله بالمعنى — نبرئه من قصد هذا و نترك مثل ما أشرنا اليه من قوله ونكتفي منه بما هو مظنة الدليل ونبحث فيه وهو

(١) قوله تعالى « ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها » قال : أي نادوه بها بأن تقولوا يا الله كما نقل عن ابن عباس رضي الله عنه . وأقول ان صديقنا حفظه الله قد ذهل ذهولا ما كان ينتظر منه اذ جعل النداء ذكرا مفردا ونسي نصوص النحاة في ذلك وما عهده بدراسة النحو وتدريسه بعيد

(٢) قوله : حديث الانوار وارد في فضائل الاعمال ولا يختلف في جواز العمل فيها بالحديث الضعيف ولم نعلم ان احدا من الحفاظ قال بوضعه وان قال احد فليس متفقا عليه وحينئذ فلا معنى لمنع الاستدلال به اه

أقول يعني بحديث الانوار ما تقدم في (ص ١٠٠) وهو « اذا قال العبد الله خلق الله من قوله ملكا مقربا لا يزال يقول الله الله حتى يغيب في علم الله وهو يقول الله الله » ومن العجائب ان يشترط اتفاق المحدثين على القول بوضع الحديث لمنع الاستدلال به ولا يكتفي بقول واحد منهم انه موضوع . وهذا شرط ليس له فيه سلف ولا يجد له فيه خلفا . وهب انه لم يقل أحد قط بوضعه ولا بتصحيحه ولا بتحسينه ولا بتضعيفه فهل يكون حجة على مشروعية عبادة من العبادات بمجرد ذكره في كتاب مثل الانوار بغير سند ؟ ، ليذكر لنا المنتقد الفاضل من خرج هذا الحديث من الحفاظ أصحاب الصحاح او السنن أو المسانيد ذات الاسانيد المعروفة . وأما الذين جوزوا العمل بالحديث الضعيف في الفضائل فقد اشترطوا فيه شروطا ثلاثة (اولها) ان لا يكون ضعفه شديدا (وثانيها) ان يكون العمل الذي بحث عليه قد ثبتت مشروعية جنسه . وعبارة السخاوي نقلا عن شيخه الحافظ ابن حجر « ان يكون مندرجا تحت أصل عام فيخرج ما يخترع بحيث لا يكون له أصل أصلا قال السخاوي عن شيخه (الثالث) ان لا يعتقد عند العمل به ثبوته لئلا ينسب الى النبي (ص) ما لم يقله (قال) والاخيران عن ابن عبد السلام وعن صاحبه ابن دقيق العيد ، والاول نقل العلائي الاتفاق عليه اه ونقل قبل ذلك عن ابن العربي المالكي ان الحديث الضعيف لا يعمل به مطلقا . وأما الموضوع فلم يقل احد بجواز العمل به في حال من الاحوال ، والشروط الثاني والثالث أن الحديث الضعيف يعد مقويا لتلك الفضيلة التي ثبتت بدليل آخر ، وموضوع بحثنا إثبات الحكم بالحديث

الضعيف استدلالا وهو لا يدخل في ذلك . ولا يقال ان تكرار الاسماء المفردة داخل في عموم الامر بالذكر فيتحقق فيه الشرط الثاني لانه محل النزاع ، ومثل هذا نهي الفقهاء عن صلاة الرغائب وصلاة شعبان وعدهما بدعتين ولم يقولوا انهما داخلتان في عموم صلاة التطوع

هذا وان الحديث الذي يتعلق به المنتقد على عدم جواز الاحتجاج به ليس نصا في محل النزاع لجواز ان يكون المراد بذكر العبد اسم الله ذكره في صيغ الاذكار المشروعة كالتهليل والتسبيح الا ان يقال ان مايرد من أقوال الملائكة في أخبار عجائب الخلق يعد من العبادات التي يكلفنا الله اياها . وانما ذكرنا هذه العبارة عنه لاجل التذكير بهذه الفوائد والا فالحديث ليس مما يجعل محل البحث

وجملة القول في هذه المسألة ان الكتاب والسنة حثا على ذكر الله عز وجل وورد فيهما تفسير ذلك وبيانه مفصلا تفصيلا كالتهليل والتكبير والتسبيح والتحميد والتلاوة والدعاء والاستغفار ففي حديث ابي هريرة في الصحيحين « ان لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر فاذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا الى حاجتكم فيحفونهم باجنحتهم الى السماء الدنيا قال فيسألهم ربهم وهو اعلم بهم مايقول عبادي قال يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك » الحديث ، وهذا لفظ البخاري وزاد مسلم ويهللونك ويسألونك . ورواه البزار من حديث أنس بلفظ آخر اوله « إن لله سيارة من الملائكة يطلبون حلق الذكر » وفيه أنهم يقولون لله عز وجل « ربنا اتينا على عباد من عبادك يعظمون آلاءك ويتلون كتابك ويصلون على نبيك محمد (ص) ويسألونك لآخرتهم ودنياهم » فهذا هو تفسير الذكر وبيان ما يكون في مجالس الذكر وحلق الذكر كما اخبر الصادق المصدوق (ص) عن خطاب الملائكة لرب العالمين ، ولم نجد في حديث ما اتهم عدوا منه : هو هو هو ، حق حق حق ، وما أشبه ذلك من الالفاظ المفردة ، كما اننا لم نجد في شيء من كتب الحديث الأمر الصريح بذكر هذه الالفاظ المفردة وتكرارها ولا ذكر ثواب ان يقولها ولا أن النبي (ص) أو اصحابه (رض) كانوا يكررونها كما نعهد من أهل الطريق ، ولكن الاحاديث كثيرة في التهليل

والتسبيح والتكبير والتحميد وغير ذلك من الاذكار المركبة ذات المعاني ، فلماذا لم يرو لنا اصحاب الصحاح والسنن حديثا في الترغيب بذكر اسم من الاسماء يكرر مفردا ؟ ولماذا يترك اهل الطريق الاذكار الواردة ويلتزمون هذه الالفاظ المفردة ويلحون في الاتيان بها ، ويحيلون وقوع الخطأ منهم ، مع مشاهدة كثير من البدع فيهم ؟

أما حديث السنن في قيام الساعة فقد بينا معناه في الجزء الثاني وهو لم يرد في سياق تشريع من ترغيب او ترهيب وانما ورد في الخبر عن الغيب وكيف يكون الناس عند قيام الساعة . أي انهم يكونون ملاحدة اشرارا لا يقول احد منهم الله فعل كذا الله أنعم بكذا . وانما يضيفون كل شيء الى سببه أو الى انفسهم او الى الطبيعة ولا يذكرون خالقهم وخالق الاسباب كلها رب الطبيعة ورب كل شيء ومليكه . ولا يعقل ان يكون معنى الحديث ان شرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة هم الذين لا يكررون ذكر لفظ الجلالة مفردا غير واقع في كلام مركب مفيد ، لان هذا ليس عنوانا على منتهى الكفر والشر ، وزوال الخير من الارض ، بل ولا على التقصير في عبادة الله عز وجل ، فقد كان السلف الصالحون اعبد الناس واقواهم ايمانا ولم ينقل عنهم المحدثون مثل هذا

ثم اني اختم هذا الجواب بتذكير أخينا المنتقد بأنه اذا كان يريد ان يكون على بصيرة في اي حكم او مسألة دينية ويأخذها بدليلها فعليه أن يراجع فيها كتاب الله وصحاح السنة المعتمدة ، وألا يجهل من أصول الدين ودلائل الشرع ما فشا بين الناس في شر القرون ، وان شايعهم فيه المؤلفون ، واوله لهم المؤولون ، واما ان كان لا يعقل ان ما يقوله زيد وعمرو ، وخالد وبكر ، ومادون في مثل كتاب الأنوار والاسرار ، ونزهة المجالس ومريع الابرار ، الا أنه هو الحق ، الذي شرعه الله للخلق ، فعليه أن يترك الدلائل ، ويجاري الناس فيما هم عليه ، فالمقلد ليس من أهل الاستدلال ، ثم اذا كان يرى انه معذور في اتباع رأي كل مؤلف أو بعض المؤلفين الذين يثق بهم ، هو ومن تربى بينهم ، كما يفعل جماهير الناس من أهل كل ملة ، فعليه ان يعذر من يتبع نص الكتاب والسنة ، اذ هو احق بأن يعذر والسلام